السجون في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني

Prisons in Algiers during the Ottoman era

د. رفيق تلي
جامعة سعيدة
rafiq.telli@univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 2022/04/11 تاريخ القبول: 2022/12/21 تاريخ النشر: 2022/12/30

Abstract:

This study examines prisons in Algiers during the Ottoman era. Prisons were an exceptional penal regime, used for the custody or retention of the accused until the time of sentences enforcement or execution. In some cases, the debtor is kept as a prisoner to force him to pay the debt, pay the fine, or return the stolen money to his owner. The prisons in Algiers were very similar to residential houses i.e. they consisted of an inner lobby in the center of the building, surrounded by corridors divided into rooms of varying size and free of furniture, except for some mats made mostly from reeds or cogon grass used by prisoners when they sleep.

Keywords: city of Algiers; Ottoman era; prisons; Algeria; modern era.

الملخص:

تعالج هذه الدراسة السجون في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، حيث كانت السجون تمثل نظاما عقابيا استثنائيا، وكانت تستخدم لحفظ المتهمين أو للاحتفاظ بهم حتى موعد تنفيذ الأحكام بحقهم أو إعدامهم، وفي بعض الحالات يحتفظ بالمدين كسجين لإكراهه على دفع الدين أو دفع الغرامة أو رد المال المسروق إلى صاحبه، وكانت سجون مدينة الجزائر شبيهة إلى حد

كبير بالمنازل السكنية، أي أنّها كانت تتألف من بهو داخلي يتوسط المبنى، تحيط به أروقة مقسمة إلى غرف متفاوتة المساحة، وهي خالية من الأثاث ما عدا بعض الحصائر المصنوعة في الغالب من القصب أو الحلفاء يستخدمها الأسرى أثناء نومهم.

الكلمات المفتاحية: مدينة الجزائر؛ العهد العثماني؛ السجون؛ الجزائر؛ الفترة الحديثة.

مقدمة:

السجون هي أحد الأدوات العقابية التي أقرها القضاء العثماني، وعادة ما كان عقابا مخيفا بالنسبة للجاني لأنه يبعده عن عائلته ويصادر حريته، كما يقصد بالسجون تلك المؤسسات المعدة خصيصا لاستقبال المحكوم عليهم بعقوبات مقيدة للحرية، وسالبة لها وهي تشترك في ذلك مع الحكم بالأشغال الشاقة والاعتقال، حيث يحرم المحكوم عليهم من الخروج ومتابعة الحياة بشكل عادي وفي أجواء طليقة، والحيلولة دون ممارسة أي نشاط ما، وهذا لارتكابهم بعض الأفعال المخالفة للشرع أو النظام العام في المجتمع. وهنا سنركز الحديث على السجون في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، ومنه طرحنا الإشكالية التالية: ما هي أهم السجون الموجودة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني؟

والهدف من إجراء هذه الدراسة هو التعرف على السجون التي كانت موجودة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني مع تبيان أنواعها واختصاصاتها.

وفي محاولة منّا للإجابة على التساؤلات التي طرحتها، فإنّنا اعتمدنا في معالجة مضمون هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي وكذا المنهج الوصفي الذي تفرضه متطلبات بناء الواقعة التاريخية في قالبها الأكاديمي المنهجي.

1– لمحة جغرافية وتاريخية لمدينة الجزائر:

اتخذ العثمانيون من مدينة الجزائر عاصمة للإيالة ومقر لحكمهم، حيث تقع مدينة الجزائر بين خطي عرض 36 و46 درجة شمالا، وخط طول 3.3 درجة إلى الشرق من خط غرينيتش، وهي بذلك تقع في منطقة معتدلة على نحو البحر[1]، وهي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط[2] وبنيت على مرتفع متدرج يأخذ شكل مثلث، ترتكز قاعدته على المنحذر، وطرفاه: باب عزون وباب الواد اللذان يلتقيان في نقطة التقاطع العليا، تمثل القلعة رأس المثلث، وتتّسع الجهة الثالثة لتنحذر إلى جهة البحر أو الميناء[3]، وهي تتوسط إقليم وسط البلاد جناحها الغربي إقليم وهران وجناحها الشرقي إقليم قسنطينة، وتمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا، ومن ساحل البحر شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا، وتضم إقليمي: الساحل ومتيجة مع بعض الامتدادات في بلاد القبائل والتيطري[4].

ولقد حدّد لنا عبد القادر حليمي موقعها في كتابه " مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م" فقال:"... نجد اقليم مدينة الجزائر يمتد من شاطئ البحر المتوسط بجبل بوزريعة إلى جبال الأطلس البليدي، ويحدّه شمالا البحر المتوسط ويحتضنه من الشرق وادي الحراش، ومن الغرب وادي ماء زعفران، وبذلك يمتد الإقليم في شكل طولي من الشمال إلى الجنوب ليشمل مظهرين طبيعيين مختلفين تماما، احداهما سهلي والآخر جبلي (كتلة بوزريعة وسهل متيجة) وهما متممان لبعضهما لاعتماد السهل على الجبل..."[5].

وذكر المؤرخ الفرنسي "روزي" "Rozet" الذي زار مدينة الجزائر بعد الاحتلال مباشرة "...كانت مدينة الجزائر مدعمة بحزام دفاعي قوي، ومزودة بـ237 مدفعا، حيث يشكل في مجملها خمسة موضوعة على بعضها البعض، ويحتوي الصف الأول على مدافع من البرونز من عيار 36 إلى 96..."[6].

ر.ت.م.د: 2437-0797
ر.ت.م.إ: 2600-6782
الإيداع القانوني: 2015-6799

ويتكون سطح إقليم مدينة الجزائر من منطقتين مختلفتين في التضاريس والبنية إحداهما التوائية وعرة ومعقدة التضاريس يطلق عليها كتلة الساحل والأخرى منطقة سهلية هدمية منبسطة تعرف بالسهل المتيجي[7]. واشتهر إقليم مدينة الجزائر بخصوبة تربته منذ القديم، وهي تنقسم في معظمها إلى تربة حمراء في منطقة الساحل، وإلى تربة فيضية سمراء ورمادية في منطقة السهل المتيجي، وإلى تربة جبلية صخرية خشنة في منطقة جبال الأطلس المتيجي[8]. وإنّ مناخ مدينة الجزائر وضواحيها بحري بالدرجة الأولى ومعتدل للغاية وأقرب إلى الدفء منه إلى البرودة في فصل الشتاء، وفصل الصيف تغلب عليه الحرارة التي يمكن تحملها بارتياح نظرا للرطوبة الجوية المنخفضة وهبوب نسيم البحر الذي يلطف الطقس[9].

2– السجون في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني:

تشير الدراسات التاريخية إلى أنه لا يوجد أدلة أثرية كافية عن السجون في الفترة الحديثة، إذ أنّ القوات الفرنسية قد هدمتها مباشرة بعد الاحتلال الفرنسي أو حولتها إلى المصالح العسكرية، ولكن يمكن أن نفرق بين ثلاثة أنواع من السجون: هناك سجون خاصة بالأسرى المسيحيين، وسجون خاصة بالمدنيين الجزائريين، وأخرى خاصة بالجيش.

وكانت السجون قبل القرن 18م تمثل نظاما عقابيا استثنائيا، حيث كانت تستخدم لحفظ المتهمين أو للاحتفاظ بهم حتى موعد تنفيذ الأحكام بحقهم أو إعدامهم، وفي بعض الحالات يحتفظ بالمدين كسجين لإكراهه على دفع الدين أو دفع الغرامة أو رد المال المسروق إلى صاحبه[10]، وكانت سجون مدينة الجزائر شبيهة إلى حد كبير بالمنازل السكنية، أي أنّها كانت تتألف من بهو داخلي يتوسط المبنى، تحيط به أروقة مقسمة إلى غرف متفاوتة المساحة، حيث تأوي الغرفة الواحدة ما بين15 و20 أسيرا، وهي خالية من الأثاث إلا من حصائر مصنوعة في الغالب من القصب أو الحلفاء يستخدمها الأسرى أثناء نومهم[11].

2-1- سجون الأسرى المسيحيين: وتنقسم سجون الأسرى في مدينة الجزائر إلى قسمين:

أ- سجون البايلك:

كان الصراع على أشدّه بين الإسلام والمسيحية من القرن 15م حتى القرن 18م خاصة بعد الغزو الفرنسي للسواحل الجزائرية، هذا الصراع بين أساطيل الدول الأوروبية والأسطول الجزائري أدّى إلى وجود عدد كبير من الأسرى المسيحيين، ومن تم خصصت الجزائر خلال الفترة العثمانية أماكن لإقامة هؤلاء الأسرى المسيحيين وهي السجون، التي أطلق عليها لفظ "بانيو" (bagne) وهو الحمام، وهذه الكلمة اشتقت من الأصل الاسباني، ذلك أن الجزائر كانت تودع الأسرى في الحمامات أثناء الليل، غير أنّ الارتفاع المتزايد لأعداد الأسرى المسيحيين أدّى بالجزائر إلى تخصيص مبان لذلك الغرض، مع احتفاظها بهذا الاسم. ويعود تاريخ تأسيس هذه السجون إلى القرن 16م، فكان عددها في البداية سجنين فقط أولهما هو السجن الكبير، وسجن الباسطارد[12]، إضافة إلى سجون أخرى مثل: سجن تبرنة، وسجن القديسة ترين، وسجن سيدي حمودي، وسجن الديوان، وسجن قاليرا، وسجن علي مامي، وسجن أريباني، وسجن الأقواس، وكنيسة علي بتشين[13]، وهنا سنكتفي بشرح البعض منها كالتالي:

1- السجن الكبير:

وهو أكبر سجون الأسرى بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، ويضم أسرى الدولة[14]، وكان موقعه في شارع السوق الكبير على بعد 400 خطوة انطلاقا من باب عزون باتجاه الشرق، وكان يسمى أيضا سجن الملك لأنّ خير الدين هو الذي أسسه. ويبلغ طوله 35 م، وعرضه 20م، ونظرا كبر مساحته فإنّه ضم أعدادا كبيرة من الأسرى، فأثناء حكم الباشا "حسن فنزيانو" ضم هذا السجن ما بين 500 وألفي أسير[15]، ويتكون من طابقين وهو مقسم إلى عدّة غرف صغيرة[16].

2– سجن الباسطارد[17]:

كان بشارع باب عزون يبلغ طوله 18م وعرضه 09م، ويتكون من عدّة غرف خصصت للأسرى الذين يطلق عليهم اسم عبيد المخزن لأنّهم كانوا تحت اشراف الدولة حيث يستغلهم الآغا وضباط الإنكشارية في الأشغال العمومية[18]، وهو أقل من الأول مساحة، ويضم كنيسة يحي فيها الأسرى المسيحيون صلوات وقداس أيام الأحد، وفي المناسبات والأعياد الدينية المختلفة، ويتراوح عدد الأسرى في هذا السجن ما بين 400 و500 أسير، ويتمتع أغلبهم بحرية الحركة[19].

بعد ذلك أضيف إلى السجنين المذكورين أعلاه سجنان آخران وهما: **سجن سيدي حمودي** ويعود السبب في تسميته بهذا الاسم إل أنّ الولي الصالح سيدي حمودي عندما توفي دفن إلى جوار هذا السجن بعد وفاته، وهو أصغر من السجنين السابقين، وظروف الإقامة فيه أفضل كذلك أما شكله فغير منتظم، حيث أنّه يتكون من ثلاثة أربعة منازل قديمة تربط بينها ممرات. ويدعى السجن الآخر **سجن الغاليرات**، وذلك لأنّ غاليرتين نابوليتانيتين وقعتا في الأسر، واشترى آباء الافتداء الضباط الباقين. ونذكر كذلك سجن علي **بتشين**، الذي كان يضم 550 أسيرا خاصة بعد توسيعه، سجن **شلبي** (رئيس الغاليرات)، وسجن **سانت كاثرين**، وسجن **سانت كاثرين**، وسجن **الديوان**، والسجن الواقع في المكان المسمى "**تبرنة البايلك**" أي حانة البايلك وسجن **الأسود**، وسمي بذلك لاحتفاظ الداي في قسم منه، بالأسود التي كان يبعثها كهدايا لبعض ملوك أوروبا[20]. كما كان الأسرى الأوربيون يقيمون أيضا في الحمامات التي كانت في الغالب شبيهة بالمنازل بباب رئيسي ضيق وممر طويل أين تتوزع غرف الأسرى. إلى جانب وجود حانة، يقضي فيها الأسرى أوقات فراغهم، كما تتشكل الحمامات من طابق علوي يحتوي على

غرف يقيم بها الأسرى، إلى جانب وجود شرفات تطل على الفناء الداخلي، أين يوجد خزان للماء، إضافة إلى غرفة صغيرة توضع فيها سلاسل الأسرى[21].

ب– بيوت الخواص:

كان من الأسرى الأوروبيين من يقيم في بيت مالكه تشير أغلب مراسلات الكنسيين الذين توافدو على الجزائر خلال القرنين 17م و 18م إلى قضية الأسرى المسيحيين، واتسمت هذه المراسلات بالمبالغة في وصف حالتهم فهم مساكين بحسب ما ورد في بعض هذه الوثائق، والهدف من ذلك استعطاف الكنيسة البابوية، والجمعيات الدينية والمدنية للمساهمة في جمع الأموال لافتدائهم[22].

2–2– سجون المدنيين:

كانت هذه السجون تخضع للمجلس الشرعي الذي يتكون من القاضي المالكي والقاضي الحنفي والمفتي المالكي والمفتي الحنفي، وهذا المجلس ترفع له النوازل والمشاكل العويصة والمنازعات الصعبة، وهو الذي يراجع أحكام قضاة الأوقاف وينظر فيها، إذ كان بمنزله المحكمة العليا حاليا، فإذا كان الخصوم من المسلمين فإنهم يدخلون المسجد، وإذا كان فيهم من النصارى واليهود فإنّ أعضاء المجلس يخرجون إلى صحن بجانب الجامع ويحضر الخصوم، حيث قاضي الحنفية يمضي الرسوم والأحكام بالمداد الأسود وقاضي المالكية يمضيها بالمداد الأحمر، ولعل ذلك للتمييز في أول نظرة بين ما صدر من المحكمة الحنفية أو المحكمة المالكية[23]، والسجون الخاصة بالمدنيين صنفان: سجون خاصة بالنساء، وسجون خاصة بالرجال، فأما النساء فخصص لهنّ سجنان هما: سجن شيخ البلد ملحق بمقره، سجن المزوار وهو خاص بالنساء، بائعات الهوى. أما الرجال فخصص لهم سجن الآغا[24]. وكان للكراغلة سجن يسمى باسمهم (سجن الكراغلة)[25].

2-3- سجون الجيش:

كان هناك سجن مخصص للجيش يدعى دار سركاجي بمعنى السجن الواقع بالقرب من دار الخل أو سركاجي، وكان يشنق فيه الإنكشاريون المتمردون أو المخلون بالأمن العام، ولم يكن شنقهم في الساحات العمومية. وفي 1817م، عند تحويل مقر الحكم إلى القصبة العليا، اختير مكان آخر للسجن[26].

خاتمة:

إنّ وجود ذلك العدد من السجون بمدينة الجزائر في العصر الحديث لا يعني الفوضى والاجرام، وإنّما يعني وجود عدد كبير من الأسرى الأوروبيين الذي كانوا يشكلون مداخيل هامة لخزينة الدولة سواء من خلال بيعهم أو ثمن فديتهم، أو من الأعمال اليومية التي يقومون بها، لكن تلك السجون بعد 1830 منها ما هدم ومنها ما حول إلى كنائس ومستشفيات.

الهوامش:

[1]- عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص33.

[2]- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط2، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص33.

[3]- لطيفة بورابة، مباني قلعة الجزائر العثمانية (دراسة تاريخية أثرية)، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 11، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، سبتمبر 2014، ص164.

[4]- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني 1792-1830، ط3، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص29.

[5]- عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص ص32-33.

[6]- لطيفة بورابة، المرجع السابق، ص ص164-165.

[7]– عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص ص01-03.

[8]– نفسه، ص23.

[9]– عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص108.

[10]– مصطفى شريك، نظام السجون في الجزائر نظرة على عملية التأهيل كما خبرها السجناء، دراسة ميدانية على بعض خريجي السجون، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم اجتماع الانحراف والجريمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، جامعة باجي مختار، غرداية، 2010-2011، ص63.

[11] -Corine Chevalier, Les Trente premières années de l'Etat d'Alger 1510-1541. Ed, OPU. Alger1986, p. 56.

[12]– عائشة محمة، الأسرى الأوروبيين في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ الحديث، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 2011-2012، ص22.

[13]– علي خلاصي، القلاع والحصون في الجزائر، المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، دار دالمان، مطبعة الديوان، الجزائر، 2008، ص45.

[14]– بلقاسم قرباش، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2015-2016، ص257.

[15]– عائشة محمة، المرجع السابق، ص22.

[16] - Haedo Diego,op,cit,p394.

[17]– أخذ سجن الباستارد تسميته من واقعة حدثت خلال فترة حكم حسن باشا ابن خير الدين، فبعد انتصاره على الكونت دااالكوديت في معركة مستغانم التي جرت في سنة 1558م.تمكن حسن باشا من أسر عدد كبير من الاسبان والمتحالفين معهم من الأوروبيين، وقد حاول هؤلاء الأسرى من الهروب والإفلات بعد ذلك على متن السفينة المسماة باستارد، لكنّهم وقعوا في الأسر. فاختار منهم حسن باشا الأقوياء أصحاب العضلات المفتولة لتسخيرهم في عمليات التجديف. ينظر: سعيود ابراهيم، جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في

الجزائر خلال العهد العثماني، (مقاربة تاريخية)، مجلة الحوار المتوسطي، العدد15، مخبر البحوث والدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، مارس 2017، ص433 .

[18]– علي خلاصي، المرجع السابق، ص45.

[19]– سعيود ابراهيم، المرجع السابق، ص421.

[20]– عائشة محمة، المرجع السابق، ص24.

[21]– سعيود ابراهيم، المرجع السابق، ص422.

[22]– نفسه، ص422.

[23]– نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني، دار الحضارة، الجزائر، 2006، ص91.

[24]– بلبراوات بن عتو، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2007-2008، ص58.

[25]– علي خلاصي، المرجع السابق، ص45.

[26]– بلبراوات بن عتو، المرجع السابق، ص59.